

المسلمون المُفترى عليهم

محمد يوسف عدس

في العاشر من رمضان العام الماضي صدر بيان من جماعة الإخوان المسلمين بمناسبة مرور ٤٤ عاما هجرياً على حرب العبور التي تمكّن فيها الجيش المصري من عبور قناة السويس ، وتدمير خط بارليف ، وأسر جنود وضباط الجيش الإسرائيلي -فيما عُرف بنصر ٦ أكتوبر ١٩٧٣م أو العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ.

لقد جرت العادة عندي أن أقرأ البيانات المطوّلة بطريقة سريعة: فقرة في المقدمة، وفقرة في الوسط ، وثالثة في نهاية البيان ، فإذا لم أجد فيه معلومة جديدة أطرحه جانباً ولا أعلق عليه .. أضف إلى هذا أنني بحكم ميولى المعرفية الغالبة ، وصلتى الوثيقة بعالم الفكر والكتب التي استغرقت كل حياتي ، ونظراً لامتداد العمري الذي تخطى الثمانين عاما عرفت فيها عشرات من الإخوان المسلمين المفكرين والمجاهدين في كل مجال - معرفة شخصية وثيقة؛ وكان بعضهم من إقاربي الأقربين.. لذلك [أعتقد] أنني أعرف عن تاريخ هذه الجماعة منذ بداية انتشارها ، وأعمالها الوطنية والاجتماعية الإصلاحية ، وجهادها العسكري ضد الاحتلال الانجليزي بمصر، والاحتلال الصهيوني في فلسطين- [أعتقد] أنني أعرف عن هذا كله أكثر من كثير من المنتمين إلى هذه الجماعة – الذين لم تتح لهم الفرصة لمتابعتها كما فعلت ..

ولعلّي الآن أشعر بكثير من الندم أنني لم أشارك بشيء في هذا الجهد التاريخي الخالد ، تقرّباً إلى الله ؛ فقد استغرقتنى طبيعة عملي والوظائف التي شغلْتُها في مصر وخارج مصر؛ لأنها جميعاً كانت تتعلق بمجالات جديدة -بالنسبة لى- لذلك اقتضت منى جهداً مضاعفاً في الدراسة وابتكار لوسائل جديدة من باب الاتقان في العمل ؛ فما كنت لأكتفى بأداء عملي على أيّ وجه كان ، دون الاتقان الذي أرتضيه لنفسى ، ويستريح إليه عقلى.. وضميري.

أما بالنسبة لجهود الإخوان وطريقتهم في خدمة الإسلام في شتى المجالات وفي مختلف البيئات والظروف العالمية ، والنماذج البشرية التي تقود هذه الجهود -ممن صادفتهم وتعرّفت عليهم في العالم -كل ذلك كان مثار اهتمامى دائما ، لذلك أشبعته دراسة وبحثاً على مدى السنين ؛ وعندما أقرأ الأكاذيب والافتراءات عليهم أرثى لأصحابها من الكتاب الذين يكتبون عن جهل فاحش أو هوى مقيت أو كراهية عمياء لجماعة الإخوان أو للدين الإسلامي نفسه.

ولكن هذا البيان بالذات لفت نظرى بشدة لأنه جاء على خلفية إشاعات كثيرة عن محاولات: تصالح أو تقارب بين المنظومة الانقلابية وبين الجماعة المغدور بها .. ولكنى لم أصدّق ولم آخذ هذه الإشاعات مأخذ الجد.. لأسباب جوهرية يستحيل معها أن يجتمع النقيضان، إلا أن يتخلى واحد منهما عن هويته وطبيعته ومبادئه ، وقد قدّرت أن هذا مستحيل ..

لقد أفسدت الطغمة الانقلابية الجيش وإدارة الدولة والقضاء والإعلام ومنظومة الأمن- إفساداً لم يسبق له مثيل في تاريخ مصر ، واستخدمت هذه المؤسسات في اغتيال الشعب المصري واغتيال إرادته وثورته وحكومته الشرعية اغتيالاً مروّعاً -وقد نال جماعة الإخوان النصيب الأوفر من عملية الاغتيال ؛ إذ نزلت بهم جائحة نسفت قواعدهم ومقراتهم في أنحاء مصر، وتعرض عشرات الألوف منهم للقتل والحرق والسجن ، وحوكم قاداتهم بتهم ملفقة ، في محاكمات هزلية ، استعرض فيها القضاة الفسدة أحط أنواع الانحياز ضد العدالة والقانون ، نفاقاً وخضوعاً للطغمة العسكرية الباغية .

واتضح لكل ذي عينين أن المقصود هو القضاء على هذه الجماعة واستئصالها ، وتصفية قاداتها وأفرادها تصفية بدنية ومعنوية ، وإزاحتهم من الحياة السياسية ، والحياة العامة ؛ لا في مصر فقط ولكن في العالم بأسره .. ذلك لأن الإخوان المسلمين بفكرهم الإسلامي المتميز، وقدراتهم التنظيمية ، ومهاراتهم في الحشد الجماهيري ، وفي إدارة الأعمال الاقتصادية والتجارية والاجتماعية .. كانوا دائماً موضع حقد وحسد ..وقد اشتهر عنهم أنهم كانوا وراء نجاح الثورة المصرية في يناير ٢٠١١م ، ولا ينكر هذا إلا جاحد أو أعمى البصيرة ؛ لذلك اعترف أعداؤهم بهذا في تصريحات مسجلة.

لكل هذا رأى صانعوا الثورة المضادة أن التخلّص من الإخوان ضروريٌ لعدم انبعاث ثورات ناجحة في العالم العربي والإسلامي ، و ضروري لاستمرار الحكم في حوزة الرؤساء والملوك وشيوخ البترول ، الذين سطوا على السلطة والثروة [في غفلة من الزمن] واحتكروهما دون الشعوب ، ثم توارثوهما أبا عن جدّ ؛ يستوى في هذا الملوك والشيوخ .. ورؤساء الجمهوريات .وتذكروا في هذا المجال: حافظ الأسد وابنه في سوريا ، ومعمر القذافي في ليبيا ، وعبد الله صالح في اليمن.

ولا تنسوا طبعاً مبارك، الذي استهوته فكرة التوريث فملكته عليه عقله .. ودفعته لارتكاب أكبر حماقة من حماقاته ؛ وذلك بإصراره على توريث ابنه جمهورية القطعان المصرية .. الأمر الذي أشعل ثورة يناير ٢٠١١م، من أجل أجهزة المحاولة الجنونية التي جند لها مبارك خدمه وعبيده وأصحاب المنافع ، المشاركين معه في نهب الثروة وتزوير الانتخابات، وترقيع الدستور والقوانين لنقل السلطة إلى نجله تحت غطاء قانوني مزيف ، وواجهة ديمقراطية مزورة..

لهذا التفت أهداف أصحاب السلطة المطلقة في بلاد العرب وعلى رأسهم سلطة الانقلاب العسكري ، مع مطامع الدول الغربية الصليبية ، ومطامع إسرائيل الصهيونية بصفة خاصة ؛ ومن ثمّ جاءوا بالخطط والأموال بالمليارات ؛ لا للقضاء على الإخوان المسلمين فقط ، ولكن للقضاء على خطر الإسلام الذي يمثله هؤلاء الإخوان ؛ خصوصاً بعد نجاحهم في الوصول إلى السلطة عبر الأساليب الديمقراطية، عندما تمكّن الشعب بثورته أن يصل إلى صناديق الانتخابات، ويختار بمحض إرادته الحرة من يمثله في البرلمان ، ومن يحكمه .. وأثبت جدارته وقوة انحيازه للتيارات الإسلامية .. ورفض بأغلبية مطلقة أن تحكمه الأحزاب التي تطلق على نفسها ليبرالية وقومية ، وديمقراطية وناصرية وغيرها .. أكد الشعب رفضه لهم

ولتوجّهاتهم العلمانية ، في ست انتخابات واستفتاءات حرة ، لم يسبق لها مثيل عبر ستين عاما من الحكم العسكري في مصر..

وأكبر دليل على أن المستهدف الحقيقي بالاستئصال ليس هو الإخوان فحسب وإنما الإسلام نفسه باعتباره البيئة الفكرية والوجدانية التي صنعت الإخوان المسلمين ، ويمكن أن تصنع أمثالهم في قادم الأيام .. لذلك لم يكتفِ الانقلاب العسكري بعمليات استئصالهم من الحكم والسياسة والمجتمع . وإنما وجّه ترسانة الإعلام لتشويه الإسلام نفسه والافتراء على القرآن وعلى نبي الإسلام .. واخترع محورًا للضلال والتضليل سماه "إصلاح الخطاب الديني" وجنّد له أحط عناصر الأمة من رجال منسويين للدين زورًا وهم في الحقيقة من ذوى الذمم الخربة الذين يبيعون دينهم بأي ثمن .. أو من ذوى العاهات الأخلاقية المرصودة ، من قبل المخابرات ، وأمن الدولة ، مسلطة على رقابهم كالسيوف .. فتراهم مستعدين لقول أي شيء يُطلب منهم ولو كان هو الكفر البواح ، وإلا افتضح أمرهم ، وتم الكشف عن سوءاتهم للجماهير..

واستعان قائد الانقلاب في تخريب عقول المسلمين بوزراء من نفس القبيلة المنحطة الكارهة للإسلام ؛ وإلا فما معنى أن يخرج وزير ثقافته ليعلن إحداه ويصرّح بأنه يفخر بأنه ملحد وأن الإلحاد وسام شرف على صدره!!.. ولا تهتز شعرة واحدة في رؤوس الجبلة الانقلابية المتبلدة.

كيف يمكن إذن أن يلتقى الإخوان المسلمون ، مع هذه المنظومة الضالة المارقة في مصالحة أو تقارب من أي نوع..؟! -إنهم يعلمون استحالة هذا اللقاء ، لأن معناه الاستسلام لإرادة المغتصب والتخلي تماما عن هويتهم وقضيتهم الأساسية التي عاشوا من أجلها ومستعدون للموت في سبيلها.. و[هويتهم وقضيتهم الكبرى هي الإسلام ..] لهذا كان صراعهم مع الانقلاب العسكري ليس صراع خصوم سياسيين يمكن أن يلتقوا على حلول وسطى ؛ تقتضى تنازلات هنا وهناك من كلا الطرفين ، وإنما هو صراع هوية وصراع وجود ، ولذلك جاء البيان صريحًا واضحا كحدّ السيف، كما يظهر في عنوانه: " إلى قادة الجيش: عودوا إلى ثكناتكم وكفى".

وقد يسأل سائل: كفى .. ماذا؟! !! - وتأتى الإجابة قاطعة في قلب البيان .. ونصها كالآتي: "انقلب السيسى وقادة الجيش علي شرعية شعب مصر واختياره ، وترك مهمته في حراسة الحدود والدفاع عن الوطن إلى اغتيال إرادة الأمة ، والتواطؤ مع العدو الصهيوني، وحصار أهلنا في غزة، وارتكاب المجازر ضد الآلاف من شعب مصر في الميادين والشوارع الذين يطالبون بالشرعية واحترام الإرادة الوطنية.. كما واصل قادة الانقلاب العسكري تفرغ سيناء الحبيبة، وتشريد أهلها وقتلهم بالقصف الهجمي المستمر بحجة محاربة الإرهاب".

الإخوان إذن يفهمون حقيقة هذا الانقلاب وطبيعته وأهدافه ، ويرتّبون على هذا استنتاجهم الصحيح المطابق للواقع ؛ حيث يقولون في بيانهم: "ومع تغيّر عقيدة الجيش وانقلابه على الشرعية، وعلى مكتسبات ثورة ٢٥ يناير، استشرى الفساد بصورة غير مسبوقة، وبات قادة الجيش يديرون منظومة واسعة للسيطرة على ثروات مصر وأراضيها ومؤسساتها

ومقدّراتها على حساب الشعب بعيدا عن أي رقابة ؛ لذلك تراهم يؤكدون في هذه المناسبة : إصرارهم على المضي قُدماً ، مع كافة أطراف الشعب المصري الحر، في طريق الثورة السلمية ، حتى اقتلاع حكم العسكر نهائياً، وعودة الجيش إلى ثكناته ومهمته الوحيدة وهي الدفاع عن الوطن، وإعادة الشرعية وعلى رأسها الرئيس المنتخب الدكتور محمد مرسي..

إن الإخوان عندما أصدروا هذا البيان يفهمون أن ما يطلبونه من الجيش لا يمكن أن يتحقّق إلا بثورة: إما في داخل الجيش تطيح بقياداته المنحرفة التي اتخذت من الجيش أداة لتحقيق مصالحهم الخاصة على حساب الشعب المصري كله ، وأفسدت الجيش وكل مؤسسات مصر ، لتخدم مصالح ومخططات إسرائيل في المنطقة .. وإما بثورة ثانية من الشعب عندما يستيقظ ليوم موعود، يستأصل فيه الطغمة الفاسدة المفسدة لتعود الحياة الشرعية للأمة ، ويستأنف الجيش طريقه الصحيح ويعود إلى ثكناته لحماية الأمة والدفاع عنها..

كذلك يؤمن الإخوان ونؤمن معهم أنه لن يفلح أي جهد محليّ أو دولي في القضاء على الإخوان المسلمين ولو اجتمعوا له ؛ لا لسرّ خفيّ في جماعة الإخوان.. ولكن لسرّ خفيّ في الإسلام نفسه.. لقد نجحت الحرب على الشيوعية فتلاشت، وعلى الاتحاد السوفيتي فانهار، وعلى القاعدة فاندسرت ، وداعش في الطريق ..ولكن جماعة الإخوان المسلمين ليست كياناً عارضاً مثل هذه الكيانات التي نشأت في ظروف طارئة فلما تغيرت الظروف اضمحلت و تلاشت .. القضاء على الإخوان يستلزم القضاء على هويتهم وعقيدتهم .. وهويتهم وعقيدتهم -كما أكدنا- هي الإسلام ؛ ولن تفلح أي قوة على هذا الكوكب أن تقضي على الإسلام حتى ولو استأصلوا جيلاً بأكمله ، فإن جيلاً آخر سيبرز إلى الوجود أقوى و أقدر على المواجهة والبقاء في أسوء الظروف وأحلكها..

ولا بد أن نفهم أن أجيالاً كثيرة من الإخوان تَعَلَّمَتْ ورُبِّيت في مدرسة الإمام الملهم حسن البنا على أن إن الإسلام الحقيقي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من ربه ، عقيدة ثورية تنزل الأوضاع الفاسدة، وتحطم صروح البغي والعدوان المتآله ، ثورة علي الجهل والتجهيل .. وثورة علي الظلم بكل معانيه: ظلم الحاكم للمحكوم، وظلم الغني للفقير، وظلم القوي للضعيف. وثورة علي الضعف بكل مظاهره: ضعف النفوس بالشح والإثم والهوى، وضعف الأبدان بالشهوات والأسقام..! ولكن أعداء الإسلام يعيشون في وهم القوة المادية، فلا يستطيعون أن يفهموا أن الله جلّ في علاه عندما أوحى بهذا الدين إلى محمد ، قدّر في الأزل أنه هو النبي الخاتم وأن القرآن هو الكتاب المهيم إلى يوم القيامة..

هذا الجزء الإيمانيّ من القضية يستحيل على أصحاب العقول المادية المسحورة بالقوة المادية العسكرية ؛ قوة الدبابة والصاروخ والقذيفة، وقوة السجن والقهر والاستبداد- لا يستطيعون أن يفهموا أن للحق قوة إلهية وقذائف لا مردّ لها، ولا قدرة لبشر على درئها . واستمع إلى هذا الوحي من جبار السماوات والأرض: { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۖ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ... } . myades34@gmail.com

{المقال منشور بحريّة الشعب بتاريخ ٢٠١٧م}